

محمد السعيد الزاهري، رجل الإصلاح الغامض

د.ة. فتيحة صافر¹

قسم التاريخ جامعة بن بلة، وهران 1

Abstract:

Mohamed Said Zaheri, one of the reformists in Algeria, He is still a student at the Zaytouna Mosque he began his active life in the field of reform and awareness raising. Then he returned to his homeland to start a busy career in the field of teaching as an example by his teacher Sheikh Abdelhamid Ben Badis. His reformist ideas and criticism of what he saw as corrupt in Algerian society and colonial policy, which presented His newspapers to the constant arrest by the colonial authorities. He culminated his activity by joining the Association of Algerian Muslim Scholars. He had extensive activity in the west of the country until the date of the Islamic Conference in 1936 when he withdrew from the association and became a supporter of the independent movement led by Masali al-Hadj. But his bias towards the latter after the revolution of blessed liberation had a tragic impact at the end of this Sheikh, who filled the Algerian arena with his writings prose and poetry and opened his newspapers to all fair pens to contribute to the renaissance of Algeria cultural and intellectual.

Keywords: Reformist Movement, Muslim Scholars Association, Reform Journalism, Algerian Nationalism, Anticolonialism.

إنه لمن المصحف أن نتناول بالدراسة أو البحث تاريخ الحركة الوطنية في الجزائر وبخاصة تاريخ ونضال التيار الإسلامي الإصلاحي دون أن نتطرق إلى الشخصيات الوطنية التي تحملت الكثير من المشقة في مسارها النضالي، ومنها الشيخ محمد سعيد الزاهري. تلك الشخصية التي وهبت حياتها وجهدها لهذا التيار الذي ترأسه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فيما بعد. وقد كان أحد أعضاء لجنته المديرة. تبنى محمد سعيد الزاهري الفكر الإصلاحي، فكانت كل كتاباته وإنتاجه الفكري ونشاطه السياسي يصب في هذا الاتجاه. فإنتاجه الغزير وأسلوبه المميز جعل صيته يتعدى حدود الوطن فيكسب اعتراف وتقدير الكثير من المفكرين والمصلحين في الوطن العربي، إذ مكنته ثقافته الواسعة من الكتابة في الكثير من المواضيع الاجتماعية والسياسية ونشر مقالاته في العديد من المجلات والصحف داخل الوطن وخارجه. غير أن نهاية هذه الشخصية المأساوية تجعلنا نتساءل لماذا انتهت حياته بهذه الطريقة؟

¹ فتيحة صافر، دكتوراه في التاريخ المعاصر، مختصة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، أستاذة محاضرة بجامعة وهران 1، قسم التاريخ وعلم الآثار.

من خلال هذا المقال سنتتبع أهم الخطوات والمحطات في تاريخ الشيخ محمد سعيد الزاهري ونستكشف جوانب من حياته المليئة بالعمل الدؤوب إلى غاية النهاية.

الولادة والنشأة

هو الشيخ محمد سعيد بن البشير بن علي بو زاهر المعروف بمحمد سعيد الزاهري من أسرة معروفة بالورع والثقافة العربية والعلوم الدينية، ولد في 18 سبتمبر 1899¹ بقرية ليانة بمدينة بسكرة، هذه المدينة التي خرج منها الأعلام والقضاة والمثقفون ومشايخ الذكر والأدب. بدأ تعليمه على يد جده الشيخ علي بناجي الزاهري وشيوخ آخرين أمثال الشيخ علي بالعباد السنوسي والشيخ علي بلبوخاري خليفة، وكذلك عمه عبد الرحيم الزاهري، وغيرهم، حيث حفظ على يدهم القرآن وتعلم مبادئ الفقه والتوحيد واللغة العربية، وفي أواخر الحرب العالمية الأولى رحل إلى مدينة قسنطينة، فأقام بالجامع الأخضر زهاء السنة يستمع ويتعلم من دروس الشيخ عبد الحميد بن باديس. بعدها انتقل الزاهري رفقة عمه رشيد (مقدم الطريقة القادرية) إلى واد سوف، وهناك اتصل بزعيم الطريقة الذي عرض عليه أن يرافق أبناءه في رحلة طلب العلم إلى تونس، كانت هذه فرصة للزاهري حتى ينهل من معين العلم والمعرفة بجامع الزيتونة. (العجال. 2015:143) فراح يغرف من سلسيل ينبوعه المتفجر في خضم النهضة العربية التي بدأت معالمها تتراءى في كثير من البلاد العربية ومنها تونس حسب تعبير بعض المعجبين. فزاحم روادها في التحصيل وكسب المعارف والتقى بأبرز الشخصيات الأدبية والفكرية، إلى أن حصل على أعلى شهادته في أواخر عام 1924. (شهادة التطويق العالمية). (Cherif. 1996: 818)

محمد سعيد الزاهري الصحفي

بمجرد عودته إلى الوطن بعد رحلة الدراسة التي قادته إلى جامع الزيتونة. وبعد أربع سنوات من التحصيل العلمي والتفاعل الفكري والثقافي مع رواد النهضة الفكرية والسياسية التي أخذت معالمها تبلور في تونس. شارك فيها الزاهري بشكل فعال عبر مقالات صحفية نشرها بجريدة النهضة التونسية.² التي ظل يرأسها لسنوات طوال، كما نشر مقالاته بجريدة الوزير³ وجريدة الزهرة.⁴

اتخذ الزاهري من الصحافة وسيلة، تمكنه من توصيل صوته وأفكاره الإصلاحية لتوعية أفراد المجتمع الجزائري، فكانت بالنسبة له المنبر الذي يعتليه أمامهم (مرتاض. 1976: 29) لما لها من دور هام وفعال لنشر الأفكار والتأثير في الغير. فكانت أدواته لتكوين الأمة تكوينا صحيحا من حيث الأخلاق الفاضلة، والتفكير الصحيح ومقاومة الأوهام والذائل وبث روح الوثام والتفاؤل.

أصدر الزاهري بعد عودته إلى الوطن أول جريدة له وهي جريدة "الجزائر" فكانت جريدة سياسية، أدبية، تربوية، اجتماعية، اتخذت شعارا لها "الجزائر للجزائريين". ويبدو أنها ساندت الاتجاه الذي دعا إليه الأمير خالد (أبو القاسم. 1985: 258). فلم تعمّر طويلا حيث ظهر منها عددان فقط (ظهر العدد الأول في 1 أكتوبر 1925). ويذكر الزاهري أن تعطيل جريدة "الجزائر" كان لسبب تافه، وهو أن المترجم ترجم عنها كلمة "النهضة" بكلمة فرنسية معناها "الثورة" (الشهاب. 1933: 367).

هذه التجربة الفاشلة لم تثّن من عزم الشيخ الذي أصدر بمدينة قسنطينة في يوم 7 مارس 1927 العدد الأول من جريدته الثانية "البرق". وقد كتب فوق العنوان عبارة: "تسامحوا فيما بينكم فإنه لا سبيل للاتحاد كاللحام". عمّرت هذه الجريدة بعض الوقت لتصل إلى 23 عددا.⁵ ظلت الجريدة تطبع بالمطبعة الإسلامية بقسنطينة إلى غاية العدد السابع عشر، ثم اضطر الزاهري إلى نقلها لتطبع بمطبعة النهضة التونسية بعد خلاف وقع بينه وبين صاحب المطبعة الأولى. تميزت مقالاتها النارية بالسخرية والتهمك ضد أولئك الذين كانوا ضد الإصلاح الأمر الذي جلب لها عداوة دعاة الاندماج مثل بلقاسم بن التهامي الذي سعى إلى توقيفها برفع دعوة قضائية ضدها متهما إياها بجرح كرامة الأفراد لكنه فشل في مسعاه (العجال. 2006: 26). كما فتحت صفحاتها لكثير من الأقلام الجزائرية التي كان بعضهم يوقع مقالاته بأسماء مستعارة. فقد كان الأمين العمودي يذيل مقالاته باسم سمهري. أما الشيخ مبارك المليي فقد كان يوقع مقالاته باسم السلفي، في المقابل استخدم الشيخ الزاهري الكثير من الأسماء المستعارة ككأبط شرا، رقيب، الراصد، جسّاس (طبيش. 2007: 24) ومرة أخرى تعرضت الجريدة للتوقيف بسبب نهجها الإصلاحي.

بعد استقراره بمدينة وهران أصدر الزاهري جريدة "الوفاق" وهي الجريدة التي سبق لأبو اليقضان صاحب جريدة "الأمة" الإعلان عن ظهور العدد الأول منها في 27 مارس 1938. لكن تضاربت الأقوال حول أهداف جريدة الوفاق، التي وصفها أبو اليقضان بأنها جريدة عربية أسبوعية سياسية جامعة، تدعو إلى جمع الصفوف بتوحيد الجمهور على خدمة الصالح العام. (سيف الإسلام. 1985: 118) بينما أجمعت مراجع أخرى. على أنها كانت جريدة حارب من خلالها الزاهري جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وخاصة شخصي الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي، كما كانت لسان حال التنظيم الذي أسسه عام 1936 لمؤازرة الجبهة الشعبية والحزب الشيوعي (Kaddache. 1978: 576) ومنهم المؤرخ أبو القاسم سعد الله، الذي ذكر أن الزاهري في هذه المرحلة بدأ ينتقد بعض رجالات الجمعية وأن جريدته الوفاق مالت إلى اتجاه جمعية النواب برئاسة ابن جلول. (أبو القاسم. 1985: 258) صدر منها 40 عددا وكان آخرها عدد 30 جويلية 1940.

بعد الحرب العالمية الثانية أصدر الزاهري جريدة "المغرب العربي" سنة 1948. ويبدو أن هذه الجريدة التي كانت تنسب إلى الشيخ هي من الجرائد التي أسستها حركة انتصار الحريات الديمقراطية. ففي مذكراته يصف المناضل حسين آيت أحمد كيف تعرف على الرجل، خلال زيارته للزعيم مصالي الحاج، وكيف رفض مع المناضل بلوزداد أن يشرف الزاهري على هذه الجريدة. ورغم هذا صدرت الجريدة. وعبر صفحاتها شن الزاهري حربا دون هوادة على جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كذلك على فرحات عباس. (Hocine. 1983:10) كما قيل أن حزب الشعب كان يساندها بطريقة غير مباشرة ويبدو أنها مالت عند وقوع الخلاف داخل الحزب إلى صف الزعيم مصالي الحاج، وقد ذهب الزاهري ضحية هذا الخلاف. (مصمودي. 2006: 93) توقفت في ماي 1949 وعاودت الصدور في 17 مارس 1956.

لم تتوقف موهبة الزاهري عند إصدار الجرائد. فقد تعدى اهتمامه بالعمل الصحفي إلى المشاركة في تحرير الكثير منها وخاصة الجرائد الإصلاحية، حيث تولى رئاسة تحرير جريدتي الشريعة الإسلامية والبصائر مع الشيخ الطيب العقبي. ونشر مقالاته في جرائد مثل الشريعة، واد ميزاب والأمة لصاحبها أبو اليقظان. ولأن مهارة الزاهري الصحفية لم تقتصر على الكتابة باللغة العربية فقد شارك في تحرير الصفحة الإسلامية بجريدة Oran Republicain الفرنسية⁶ لسنوات عدة. وكذلك جريدة La défense لزميله الأمين العمودي. ولم يكتفي الزاهري بالكتابة في الجرائد المحلية حيث نجد له مشاركات في بعض العناوين الصحفية العربية كجريدة الرسالة لأحمد حسن الزيات. ومجلة الفتح، لصاحبها محب الدين الخطيب اللتان كانتا تصدران بمصر. ومجلة الحضارة التي كان يصدرها عبد الحميد الزهراوي بالأستانة. (مصمودي. 2006: 93)

سواء باللغة العربية أو الفرنسية تناولت مقالات الزاهري مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في الجزائر والعالم العربي وفي الكثير من مقالاته تطرق لبلدان من أوروبا وآسيا بأسلوب واضح وجلي. وهذا دليل على سعة وثراء علمه وثقافته. حيث برع الزاهري في كتابة المقال الصحفي، باللغة العربية أو اللغة الفرنسية، فكان المعبر عن أفكاره وتوجهاته الفكرية والإيديولوجية، ومن خلاله شرح وحلل وسرد بلغة قوية وسليمة كما رد على أعدائه وخصومه. وكذلك من خلاله هاجم وآزر حال البلاد والعباد في تلك المراحل الحاسمة من تاريخ الجزائر. وكمن مرة جلبت له مقالاته انحصومة وردود الأفعال العنيفة من خصومه وخصوم الإصلاح في الجزائر.

أدرك الزاهري أهمية الصحافة وتأثيرها القوي على المجتمع، فكان حريصا منذ عودته إلى الجزائر على إصدار الصحف. العنوان بعد الآخر فكلمها أوقفت له السلطات الفرنسية صحيفة أنشأ أخرى. كما لم يتوقف عن المساهمة في الصحف المختلفة داخل وخارج البلاد. ولم تنته ممارسات الإدارة الفرنسية التي كانت تتعقب ما

يكتب وما ينشر بجرائده لتوقفها. ويصف الزاهري بعض مظاهر الاضطهاد المسلط على الجرائد العربية في الجزائر في ذلك الحين حيث كتب يقول: "... ومع ذلك، فصحافتنا العربية ... لا تزال ترزخ تحت الأغلال والقيود: فقد شدت السلطة وثاقها، وأمسكت بخناقها، وتكتم أنفاسها كما تشاء وتختار، وتقتلها دون محاكمة ولا سؤال ... فليس أمامنا إلا أمران لا ثالث لهما: إما أن نكسر أقلامنا ونزج أنفسنا من هذا العناء. وإما أن نصبر وتحمل، ونستعد لكل ما يصيب صحافتنا من خراب، ويصيب عيالنا من الحنة والبلاء". (الشهاب. 1933: 368)

محمد سعيد الزاهري المدرّس

بدأ الزاهري نشاطه الإصلاحي بمسقط رأسه بمدينة بسكرة كمدرس بمدارسها العربية الحرة ودعا إلى تأسيس مدرسة للتربية والتعليم التي رأت النور عام 1931. وهي مدرسة "الإيحاء" تحت إشراف محمد خير الدين واحد من أعضاء جمعية العلماء الجزائريين. (العجال. 2006: 143) لكنه سرعان ما توقف عن التدريس ليتفرغ للعمل الصحفي. وفي عام 1929 عاد للتدريس بمدينة الأغواط لكنه لم يستمر طويلا حيث أسس بها مدرسة الشبيبة القرآنية التي خلفه عليها زميله مبارك الميلي. فقد انضم إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعمل معلما في المدارس الحرة التي كانت تشرف عليها فانتقل بين مدن كثيرة وفي مدينة وهران، أنشأ جمعية "الإصلاحية" سنة 1934 لتعليم اللغة العربية وبعث روح العروبة بين أبناء الجزائريين (مراد. 1999: 132). أما في مدارس مدينة تلمسان فقد تولى تدريس مادة النحو والأدب في المكان المعروف بزقاق الرمان. ويصفه الدكتور قورصو بناء على شهادة بعض تلامذته قائلا: "كان يحب تلاميذه ويطلعهم على مقالاته التي كان ينشرها في المشرق وبعضها تحت اسم مستعار" (El Korso. 1989: 42). لكن المتتبع لنشاط الزاهري يلاحظ أن التدريس لم يكن من أولوياته مقارنة بالعمل الصحفي، فإذا كان جزءا من عمله الإصلاحي فإنه لم يوليه جل وقته حيث كان يتوقف عنه بعد فترة من البدء فيه.

الزاهري الأديب والشاعر

إن كنا عرفنا الزاهري الصحفي البار الذي تعدت مقالاته حدود الوطن وشهد له من كان ينشط في هذا المجال بالبراعة والتميز، فإن ملكة الزاهري لم تتوقف عند كتابة المقالات الدالة على سعة علمه وقوة حجته وبراعته في التوضيح والإقناع، حيث نجد الزاهري الشاعر الذي كان يري أن ما دعاه لكتابة الشعر هو: "الحالة الأليمة التي كانت تتردى فيها الجزائر في أوائل القرن والانحراف الديني الذي كان يغذيه المستعمر من جهة ويزكيه الجهل المطبق من جهة أخرى" (خرفي. 1982: 42) هذه الأوضاع كانت كفيلة لتفجر عند ذوي

الإحساس المرهف من المثقفين الذين تعرفوا في دراستهم على أزهى عصور الجزائر في التاريخ. فهو يقارن الحاضر بالماضي فيتمزق قلبه بين أمس مرفوع الجبين وحاضر معفر في التراب فيقول.

لست أقول الشعر إلا لأنني أروج ما تخفي الضلوع وتحجب
ولوع بإدراك المعالي يريد لها وكل امرئ يهوى المعالي محب

وفي قصيدة أخرى عن الجزائر وما أصابها كتب يقول:

ويلاه، اذهل خاطري عما بي ما بالجزائر من اليم عذاب
فنسيت من بؤس الجزائر، كل ما القاه في الدنيا من الأتعاب
وفنيت في حب الجزائر، مثلها يفني المحب الحق في الأحباب
وإذا أصاب بني الجزائر حدث فهناك عظيم بليتي، ومصابي
كيف الخلاص من الجزائر؟ بعدما ملكت علي مشاعري وصوابي
فإذا ضحكت، فللجزائر، أو نجت فلم يكن، إلا لها، تنحائي
ويلذ لي، من بعد ذلك، أن يطول على الجزائر في الحساب حسابي

(الجابري، 1989: 307)

يعد الزاهري كذلك من الرواد الذين حاولوا ولوج عالم القصة الأدبية. إذ تعود بدايات القصة القصيرة الجزائرية المكتوبة بالعربية إلى سنة 1925 حين ظهرت أول محاولة قصصية على صفحات جريدة "الجزائر" بعنوان "فرا نسوا والرشد" لمحمد سعيد الزاهري. لكن تميزت بافتقارها إلى التركيز والتسلسل القصصي المتماسك حيث غلب عليها السرد التقريري والوعظ التعليمي المباشر وهذا الطرح ذهب إليه الدكتور عمار زعموش والدكتور عبد الله الركيبي في بحثهم حول "القصة القصيرة في الأدب الجزائري" في الستينيات من القرن العشرين، والطرح نفسه أقره الدكتور عبد الملك مرتاض في كتابه "القصة الجزائرية المعاصرة" (مرتاض، 2003: 96).

كانت هذه المحاولة مدعاة لتأسيس أول جائزة أدبية أعلنت عنها جريدة "المنتقد" لأفضل قصيدة شعرية ترثي شخصية "الرشيد" في القصة. وقد فاز بها الشيخ محمد آل خليفة (نشرت في المنتقد 2 جوان 1925). هكذا سجل الزاهري اسمه ضمن أوائل الكُتاب الذين مهدوا لظهور القصة والرواية باللغة العربية في الأدب الجزائري وإن كان الأديب أحمد رضا حوحو الذي عاش فترة زمنية بالحجاز يعد الرائد الأول لفن القصة القصيرة في الجزائر وهو الذي أعطاها مكانتها الخاصة وثبت وجودها في الأدب الجزائري الحديث. ومن مؤلفات الزاهري التي نالت شهرة واسعة وإعجاب المفكرين والمثقفين في الجزائر والوطن العربي كتابه "الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير" وهو في حقيقة الأمر عبارة عن مجموعة من المقالات التي كان ينشرها في جرائد مختلفة وخاصة مجلة "الفتح" المصرية. (أبو القاسم. 1985: 69 ومحمد زيدان. 2007: 69) وقد ذكر الزاهري في مقدمة الطبعة الثانية للكتاب أن ما دعاه لنشره هو ما كان يصله ويقرأه من إعجاب قراء مجلة الفتح بما كان ينشر له على صفحاتها.

عن هذا الكتاب كتب العلامة عبد الحميد بن باديس في مجلة "الشهاب" 1929: "عرفناه في هذا الكتاب داعية إسلاميا كبيرا، وقد خاض مسألة الحجاب، والمرأة الجزائرية ومسألة الإسلام والتغريب، والشبيبة المتعلمة، فأناب عن حقائق وأقام الحجج ما لا يلقاه أشد الخصوم، إذ أنصف إلا بالإكبار والتسليم وساق ذلك في أسلوب من البلاغة الشبيه بالروائي، سهل جذاب لا يستطيع أن تتركه قبل أن تأتي على آخره." (الشهاب. 1931: 793)

محمد سعيد الزاهري الرجل المصلح.

عرفت الجزائر الفكر الإصلاحية منذ نهاية القرن التاسع عشر (19)، وتأكد ذلك بعد زيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر في سبتمبر 1903، حيث كان لهذه الزيارة أثرا طيبا على المثقفين الجزائريين، فازدادت الحركة الإصلاحية انتشارا خاصة بعدما أخذ الشيخ عبد الحميد بن باديس على عاتقه نشر هذا الفكر واجتمع حوله مجموعة من الجزائريين الذي توجوا أفكارهم وتطلعاتهم وجهودهم بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ككل رجالات الجزائر الذين اتخذوا من الإصلاح منهجا في مشوار حياتهم النضالية عن قناعة بأن التحرر من سيطرة الاحتلال تبدأ من تحرير النفوس من تبعية التقليد ونبد الخرافات والمعتقدات البعيدة عن الإسلام وذلك بتكوين الأمة تكوينا صحيحا قائما على التفكير الصحيح وعلى التمسك بالقرآن والسنة والأخذ بأسباب العلوم الحديثة. كان الزاهري من أبرز الكُتاب والشعراء خلال العشرينات والثلاثينات ومن أكثرهم دفاعا على الوطن والدين. حيث قام بدور فعال في الدعوة للإسلام وحماية الشباب من خطر المبشرين وما كان يقوم به الآباء البيض والأخوات. فكان الإصلاح في نظره لا يكمن في إعلان الحرب على الطريقة فقط،

وقضاء جل الوقت في البحث عن العبارات الجارحة للتراشق بها، ولا يعني الانغلاق في جو التعليم والتربية دون الاهتمام بالتوعية والتكوين السياسي، بل أن الإصلاح الحقيقي هو الذي يسعى دائماً إلى تقريب المسافات بين مختلف الطوائف الشعبية التي لا يزال الاستعمار ينشر بين صفوفها التفرقة والخصام لتستغلها. كما وصف رجال الإصلاح بقوله: "هم رجال الأمة وروادها، لا يكذبون أهلهم ويأخذون بيده في طريق الخلاص، توجيه العزائم، وتحريك الهمم، وصدق الطلب والإخلاص، والصبر والثبات". (الزيري. 1955: 66) لهذا ونحن نتتبع مسيرة حياته المليئة بالأحداث قسمناها إلى ثلاث مراحل اختلفت فيها كل مرحلة عن الأخرى بما امتازت به من أحداث وتحولات في كتاباته ومواقفه.

الزاهري بين الفكر الاصلاحى والنضال السياسى من 1925 إلى غاية 1931

فيها اتخذ من العمل الإصلاحي منهجا ووسيلة لمحاربة الاستعمار. تبدأ مباشرة بعد عودة الزاهري من تونس وقد استلها بالتدريس في المدارس العربية الحرة ولأن طبيعة شخصيته لا تحبذ الاستقرار والخلود للروتين كان الزاهري كثير التنقل حيث أستقر لفترة وجيزة بمدينة الأغواط للتدريس ثم سافر إلى الجزائر العاصمة وهناك أصدر جريدته "الجزائر" التي أوقفها الإدارة الاستعمارية. بعدها انتقل إلى مدينة قسنطينة وهناك عمل على إصدار جريدة "البرق". وخلال هذه المرحلة كانت الكلمة المكتوبة السلاح الذي اتخذ الزاهري لمحاربة العادات والتقاليد التي كان يعتقد بأنها أفسدت الأمة وأبعدتها عن تعاليم الإسلام الصحيحة. وأظهر عداوته للطريقة وقادتها ناعتا إياهم بأدوات الإدارة الفرنسية. ويأتي الزاهري في الحرب على الطريقة والزوايا مباشرة بعد الشيخ الطيب العقبي، وخاصة في منطقة الزيبان. حيث دعا الإدارة الفرنسية لمحاربة خداعهم للناس، وشكرها لما منعت رجال الزوايا من جمع الأموال، وفي مواقع أخرى دعاها لمنع الطريقة الطيبية وغيرها من الطرق الصوفية الموجودة بالمنطقة، لما تقوم به من منكرات تسيء للدين الإسلامي، كما حملها مسؤولية تردي أوضاع الناس. وحارب فكرة النسب الشريف التي أصبح بعض الناس يستغلونها. (العجال. 2006: 77) استمرت هذه المرحلة في حياة الشيخ، ينشط فيها في حقل الإصلاح كغيره من علماء الأمة في هذه الفترة من تاريخ الجزائر، إلى غاية تلبيته دعوة الشيخ عبد الحميد بن باديس لتأسيس جمعية تجمع وتنظم جهود كل المصلحين في الجزائر.

نشاط الزاهري بين سنوات 1931 و1936

فيها أصبح الزاهري عضوا من أعضاء مكتبها. وفردا فعلا فيها. وفي بداية عام 1933 أصبح ممثلا للجمعية بالغرب الجزائري ومن الشخصيات البارزة في مدينة وهران. كما رافق الشيخ عبد الحميد بن باديس في زيارته إلى أرزيو ومعسكر. (طالي. 1997: 323) فكان واحدا من الواضعين لأسس جمعية العلماء بالغرب الجزائري

ومن الذين نشروا أفكارها وأهدافها بالمنطقة. وبالإضافة إلى نشاطه التدريسي والصحفي شارك في أشغال المؤتمر الأول للجمعية المنعقد بنادي الترقى سنة 1935 وألقى به قصيدة تحمل فيها على الزوايا والمرابطين (قوبع. 2008: 81).

في عام 1936 أعلن عن تأسيس جمعية لإحياء الأدب العربي وتشجيع التأليف في الجزائر باللغة العربية وطبع مؤلفات الأسلاف أطلق عليها اسم "جمعية أخوان الأدب". لكن القدر لم يهيئ الظروف لميلاد هذه الجمعية. حيث كتب يصف هذه الجمعية وأهدافها قائلا: "نعمل على إحياء الأدب العربي في هذه البلاد حتى يكون عاملا قويا في نشر العروبة ومكارمها بين هؤلاء العرب وفي بعث الشعور الإسلامي في أنفس هؤلاء المسلمين وذلك بطبع ما كتب الأسلاف وبوضع الجزائر للشبان الذين يكتبون خير القصص، وبشراء نسخ من الكتب التي ترضى عنها، (أخوان الأدب) بالاحتفاء بالعاملين في هذا الحقل الأدبي وبتكريمهم وإقامة الحفلات لهم ... وتتوي أخوان الأدب أن تؤدي واجبها وواجب هذه الأمة نحو هذا الشح الضئيل في صحافتنا العربية فتندب من أعضائها لكل صحيفة من يكتب فيها". (جريدة البصائر. 1936: 94-95)

ظل الزاهري يتخذ من الصحافة منبرا لمحاربة البدع والخرافات ودعا إلى التمسك بالقرآن والسنة الشريفة وانتقد بشدة الزوايا والطرقين الذين وصفهم بالتآمر مع السلطة لغلق المساجد في وجه علماء الدين وأيضا لإغلاق الكتاتيب القرآنية وتعطيل المدارس العربية، فدفعوا بأطفال المسلمين إلى الشارع ودفعوهم إلى أحضان المبشرين. كما خصص أعدادا كاملة من جريدته لكشف أسرار الزوايا ومحاربة خرافاتهم وفسادها وخاصة منها زاوية عابد. كما كان شديدا على الرحمانية وتعاطف مع التيجانية فوصف شيخها بالصلاح ودعا للاقتداء به (كحكاح. 2014: 79). واتهم الشيخ ابن عليوة صاحب الزاوية العلوية بالتصوف الكاذب وبالجهل والكفر والإلحاد (العجال. 2006: 66).

بسبب مواقفه المعادية بشدة للطرقين وعلماء الاستعمار تعرض الشيخ في جوان من نفس السنة لاعتداء كاد يؤدي بحياته إذ شج أحدهم رأسه بهراوة ولم تقدم الإدارة الفرنسية أي جهد للقبض على الجاني. فنشرت جريدة "الشريعة" الخبر وانتقدت الكيفية التي تعاملت بها الإدارة الفرنسية مع هذا الاعتداء و تقاعسها في البحث عن الجاني (جريدة الشريعة. 1933: 5).

تعد هذه المرحلة من أحص وأفضل مراحل حياته فقد خلف لنا خلالها كما هائلا من المقالات والمشاركات في مختلف جوانب الحياة فدل ذلك على عالم واسع الاطلاع وغزير المعرفة. فعن محاربته للتنصير والتبشير عمل على فضح أساليب المبشرين الملتوية واتهم الإدارة الفرنسية بدعم هذه السياسة حيث كتب

الزاهري عن أساليبهم يقول: "وهم في الواقع لا ينشئون مدارس ولا مستشفيات، كما نفهمه من هذه الأسماء، بل هم ينشئون بين أوساطنا الإسلامية والعربية مراكز للتنصير والتظليل... والأخطر أن ترى السلطة تشترك في المآدب والحفلات التي يقيمها هؤلاء المضللون كما فتحوا في هذا البلد الإسلامي مراكز للتنصير والتظليل وهذا معناه أن السلطة وهي علمانية تحمي هؤلاء المضللين وتساعدهم في الاستيلاء على عقائد المسلمين". (الشهاب. 1933: 368)

في هذه المرحلة من تاريخ الشيخ، أظهر ميوله إلى العمل السياسي وأظهر تعاطفه مع الجبهة الشعبية،⁷ وعشية انعقاد المؤتمر الإسلامي (1936)⁸ أسس "كتلة الجمعيات الإسلامية لعمالة وهران" حيث ضمت حوالي 13 جمعية للترويج لفكرة المؤتمر قبل وبعد انعقاده. كما بدأت معالم خلافه مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تظهر، فهاجم بشدة رئيسها بالغرب الجزائري الشيخ البشير الإبراهيمي، وفي 14 جويلية 1936 نشرت الكتلة رسالة شديدة اللهجة ضد الشيخ الذي دعا الجزائريين للتظاهر بمناسبة احتفال الجبهة الشعبية بفوزها بالانتخابات. (مهديد. 2006: 340) ووصل به الأمر إلى إتهام الشيخ البشير بالانتماء إلى التجمع الماسوني بسطيف (kaddache.1978: 565) وفي هذا الصدد لابد من الإشارة إلى حماس واندفاع كتلة الجمعيات الإسلامية لعمالة وهران، المتعاطفة مع الحزب الشيوعي والأحزاب اليسارية لتنشيط الاجتماعات وسط الجماهير لصالح تطبيق مشروع بلوم فيوليت. (مهديد. 2006: 428)

النشاط السياسي والتخلي عن عضوية جمعية العلماء

تعتبر هذه المرحلة بين 1937 إلى غاية 1956 من أشد مراحل حياة الشيخ غموضا، ففي ظل انعدام الوثائق لا نجد تفسيرا للتحوّل الذي عرفته هذه الشخصية في علاقتها بالقوى الإصلاحية والسياسية التي كانت فاعلة في هذه الفترة. ولعل هذا التحوّل الخطير هو الذي يفسر نهايته المأساوية التي تظل بدورها تفتقد إلى المعلومات الموثقة التي تبررها. فن رجل إصلاح وواحد من رجالات جمعية العلماء المسلمين المعول عليهم، تحول الشيخ إلى عدو لدود لرجالها خاصة لرئيسها الجديد الشيخ البشير الإبراهيمي. (طالب الإبراهيمي. 1997: 558)

فبالرغم من أنه كان محسوبا على الاتجاه الإصلاحي في الجزائر آنذاك فقد أخذ ينتقد بعض رجالات الجمعية وهم يعيشون محنة العداء الواضح الذي أظهره لهم الدكتور بن جلول واعتقال العقبي وخروجه من المجلس الإداري للجمعية (أبو القاسم. 1985: 335) وظهور الحساسيات بينه وبين الشيخ عبد الحميد بن باديس. نجده في هذه المرحلة من حياته يقترب من أعضاء حزب الشعب الجزائري، من خلال زيارته المتكررة لزعيمه

مصالي الحاج ومشاركته في إصدار جريدة "المغرب الإسلامي" وبعد الحرب العالمية الثانية انضم إلى الطاقم الدعائي لحركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD) كمحرر بجريدة المغرب العربي واستمر في مناصرة الحزب والدفاع من مبادئه حتى قيام الثورة التحريرية، فأثر البقاء إلى جانب مصالي الحاج، يناصر حركته التي أنشأها بعد انقسام حزبه سنة 1953 باسم الحركة الوطنية الجزائرية المصالية (MNA)⁹ وهذا الأمر أثار قادة جبهة التحرير الوطني ضده فأمروا بتصفيته. (مصمودي. 2006: 150-151). كما نشهد في هذه الفترة تراجعاً عن انتقاد الطريقة عموماً باعتبارها أداة في يد الإدارة الاستعمارية والتي كانت أحد الموضوعات التي ركز عليها الزاهري في نهجه الإصلاحية قبل هذا. ففي أبريل من عام 1938 شارك في مؤتمر لأصحاب الطرق، دام ثلاثة أيام برئاسة الشيخ مصطفى القاسمي (أبو القاسم. 1985: 335). ودعا عبر جريدة الوفاق إلى تقريب المسافات وتوحيد الرؤى بين الطريقين والإصلاحيين "إن أعداء الإسلام والمستعمرين يحملون على الطريقين والإصلاحيين معاً فلماذا لا نوحّد جهودنا لدفع الخطر". كما عبر عن وقوفه مسافة واحدة من كل القوى السياسية الجزائرية حيث كتب يقول: "لا تفرق الوفاق بين أحد من الطريقين والإصلاحيين ولا بين واحد من النواب المسلمين لعمالة قسنطينة أو كتلة الجمعيات الإسلامية لعمالة وهران، وسنقف في الموقف نفسه مع أحزاب الجبهة الشعبية ومنظماتها" (مصمودي. 2006: 143)

قضى الزاهري كل حياته في عالم العلم والمعرفة، وأدرك من البداية أنهما الوسيطان الأساسيتان لمحاربة الاستعمار والجهل والبدع، تحدوه إرادة قوية في نهضة المجتمع الجزائري بالإصلاح والتربية والتعليم ونشر العلم فأخذ من الصحافة درعاً حارب من خلالها البدع والفن بأسلوب قصصي شيق وبلاغة لغوية نادراً ما تطوعت لعالم مثله، فكان أبرز الكتّاب الجزائريين بين العشرينات إلى غاية الثورة الجزائرية على المستعمر، لكننا إلى اليوم لا نستطيع أن نفسير التحولات الجوهرية التي دخلت حياته وغيّرت مساراته من رجل إصلاح يهاجم الطريقة والطريقين إلى داعٍ للتقارب بينهم وبين الإصلاحيين، كما هادن الإدارة الاستعمارية التي ظل يهاجمها ويصفها بأبشع الصفات. يبدو أن الشيخ الزاهري رغم ما كسبه من علم ورغم الملكات اللغوية والأدبية التي بوأته مكانة علمية متميزة إلا أنه كان شديد التأثر بمن حوله من شخصيات ورجال، فلما عاش في محيط الشيخ ابن باديس تأثر بأفكاره ولما عاش في محيط مصالي الحاج -ونحن نعرف علاقته بالطريقة- تأثر به، لذلك هاجم الشيخ البشير الإبراهيمي وتقرّب من الطريقين ومن المصاليين إلى أن لقي حتفه اغتيالاً قرب مسجد كتشاوة بعاصمة الجزائر. اغتيل الرجل وبقيت أفكاره وقصائده النضالية تشهد على عبقرية الرجل وتفانيه في بعث النهضة الفكرية والثقافية الجزائرية. وربما استطعنا أن نصف الرجل بما وصفه أحد زملائه ورفاقه بالنضال الشيخ أحمد التوفيق المدني، لما كتب: "...كان موقداً للنار... وكان شاعراً ملياً فخلاً وكتاباً مقتدراً وكان في سلوكه وفي سياسته قوس قزح يتحلى كل حين بلون جديد". (المدني. 1988: 129)

الإحالات

- ¹ - اختلفت المراجع حول تاريخ ميلاد الشيخ سعيد الزاهري، حيث يقول صالح خرفي أنه ولد سنة 1900، بينما يقول فوزي مصمودي أنه ولد في حدود سنة 1899. أما شهادة ميلاد الشيخ المستخرجة من زريبة الوادي فتثبت أنه ولد سنة 1901 دون تحديد اليوم ولا الشهر. أخذنا بدراسة الباحثة كحكاخ يمينه. حول هذه الشخصية.
- ² - جريدة النهضة: جريدة تونسية أسسها الظاهر بن الحاج مبروك ورئيس تحريرها الشاذلي القسطلبي. فكانت من الصحف ذات الاتجاه الاستقلالي (1923-1953).
- ³ - جريدة الوزير: أسسها الطيب بن عيسى ذو الأصول الجزائرية، ظهرت ما بين (1920-1956)
- ⁴ - جريدة الزهرة: مؤسسها عبد الرحمان الصندالي ما بين (1889-1953)
- ⁵ - هناك اختلاف في المراجع التي تناولت تاريخ الصحافة العربية في الجزائر حيث لم تتفق حول مؤسس هذه الجريدة منها من ينسبها للزاهري ومنها من ينسبها إلى اسم آخر هو محمد رحموني. كما اختلفت المراجع حول الأعداد التي ظهرت منها فبعض هذه المراجع يؤكد أنها لم تعمر طويلا منها. لكن الأرجح أنه كان هناك جريدتين بنفس الاسم في تواريخ متقاربة.
- ⁶ - كانت للزاهري كل يوم خميس في الشهر صفحة خاصة هي الصفحة الإسلامية وهي مخصصة لكل ما له بالجنب الإسلامي والعربي من أخبار وتحليلات. ومن خلال هذه الصفحة نطلع على ثقافة الشيخ الواسعة واطلاعه على الكثير من أخبار العالم الإسلامي.
- ⁷ - الجبهة الشعبية FP: تمثل تجمعا لأحزاب اليسار الفرنسية في انتخابات 3 ماي 1936
- ⁸ - المؤتمر الإسلامي 1936: هو أول تجمع وطني جزائري جمع كل التيارات السياسية رغم اختلاف آراءها واتجاهاتها عقد بسبب إصدار فرنسا لمشروع بلوم فيوليت الذي يمنح الجنسية الفرنسية لبعض الشباب الجزائري المثقف بالفرنسية بشرط التخلي عن الأحوال الشخصية أي التنكر للإسلام. إن فكرة عقد المؤتمر كانت بدعوة من عبد الحميد بن باديس والدكتور بن جلول... ولهذا كانا من أبرز الحاضرين إلى جانب البشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، والدكتور سعدان، وفرحات عباس، والدكتور بن التهامي وقد طالب المؤتمر - إلغاء المعاملات الخاصة بالجزائريين. إلغاء المحاكم العسكرية - اعتبار اللغة العربية لغة رسمية إلى جانب الفرنسية. - تحرير الدين الإسلامي من سيطرة الدولة الفرنسية... الخ. وقد تم الاتفاق على تشكيل وفد عن المؤتمر ينتقل إلى باريس لتقديم مطالب المؤتمر إلى حكومة الجبهة الشعبية.
- ⁹ - MNA: الحركة الوطنية الجزائرية. ظهرت هذه الحركة بزعامة مصالي الحاج في ديسمبر 1954 بعد أن انشق حزبه "حركة الانتصار للحريات الديمقراطية" في هذه السنة، إلى (جبهتين: إحداهما تناصره، وهم المصاليون ومنهم تكونت). (MNA) ينظر: بنيامين سطورا، مصالي الحاج، رائد الوطنية الجزائرية 1898-1974، منشورات الذكرى الأربعين، الجزائر، 1998، ص 22)

المصادر والمراجع

- الإبراهيمي، أحمد طالب. (1997). عيون البصائر. جمع وتحقيق، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- أبو القاسم، سعد الله. (1985). تاريخ الجزائر الثقافي. الأجزاء 4-5-8، بيروت: دار الغرب الإسلامي
- الجابري، محمد الصالح. (1989). النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962. الجزائر: الشركة الوطنية للتوزيع والنشر.

جريدة البصائر (1936)، السنة الأولى، 4 (11)

جريدة البصائر (1948). 9/61

- جريدة الشريعة (1933). 8/4
- جريدة الشهاب (1927). مج 7، 12/12
- جريدة الوفاق، 5 ماي 1938
- الخرفي، صالح. (1982). محمد سعيد الزاهري. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- الزيري، العربي. (1955). المثقفون الجزائريون والثورة. الجزائر: المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر
- سيف الإسلام، الزير. (1985). تاريخ الصحافة في الجزائر. الجزء 6. الجزائر: الديوان الوطني للكتاب
- طالبي، عمار. (1997). آثار ابن باديس. مج 2، الجزء 2، ط 3، الجزائر: الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع
- طبيش، عبد الكريم. (2007). أدب المقاومة عند محمد سعيد الزاهري من خلال جريدة البرق. رسالة ماجستير كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة منتوري بقسنطينة.
- العجال، أحمد. (2006). الخطاب الإصلاحي عند الشيخ محمد سعيد الزاهري (1900-1956). مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ وحضارة البحر المتوسط. كلية العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة.
- العجال، أحمد. (2015). الإصلاح في فكر الشيخ محمد السعيد الزاهري الجزائري 1900-1956. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الواد. العدد 9 (6). ص ص 141-164
- قوبع، عبد القادر. (2008). الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيان وميزاب (1920-1945). مذكرة تخرج لنيل شهادة ماجستير في التاريخ المعاصر، قسم التاريخ، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر.
- كحكاح، يمين. (2014). الحركة الإصلاحية في منطقة الزيان، الشيخ سعيد الزاهري نموذجا 1900-1956. رسالة ماجستير في تاريخ الجزائر المعاصر جامعة منتوري قسنطينة.
- محمد زيدان، رغداء. (2007). محمد سعيد الزاهري وكتابه الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير. مجلة التراث العربي. دمشق. ص ص 69-80.
- مراد، علي. (1999). الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، بحث في التاريخ الديني والاجتماعي. 1925-1940. تر. محمد يحياتن، ط 2، الجزائر: دار الحكمة.
- مرتاض، عبد المالك. (1976). نشأة الصحافة العربية وتطورها في الجزائر. مجلة الثقافة، الجزائر، (33) ص ص 19-30
- مرتاض، عبد المالك. (2003). أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962. ج 2. الجزائر: سلسلة منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث.

مصمودي، فوزي. (2006). تاريخ الصحافة والصحفيين في بسكرة وإقليمها 1900-1956. عين مليله: دار الهدى
مهديد، أ. (2006). المثقفون الجزائريون في عمالة وهران. خلال الحقبة الكولونيالية الأولى 1850-1912. وهران:
منشورات دار الغرب.

ACHOUR, CHERIF. (1996). *Mémoire Algérienne : Dictionnaire bibliographique*. Alger: Ed. Dahlab.

AIT AHMED, HOCINE. (1983). *Mémoires d'un combattant, l'esprit d'indépendance, 1942-1952 (mémoires)*. Paris, Messinger.

EL KORSO, MOHAMED. (1989). *Politique et Religion en Algérie, l'Islah: ses structures et ses Hommes, le cas de l'association des Ulama Musulmans Algériens en Oranais 1931-1945*. Paris: Thèse d'Histoire.

KADDACHE, MAHFOUD. (1978). *Histoire du nationalisme Algérien*. Tome2. Alger, OPU.